الفصل الثانى

ثقافة التواصل

فـي مجرى التاريـخ البشـري

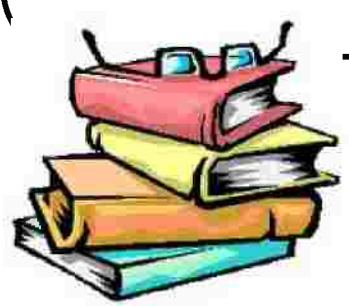

إن ثقافة التواصل مشروع جديد يسعى إلى قطيعة مع الأنظمة الفكرية والاجتماعية والحضارية الضارة والمعيقة للتطور والازدهار، لكنه هو في الحقيقة مشروع قديم، قد تختلف ملامحه من عصر إلى آخر، وقد ظل في تطور مستمر، ويشهد مجرى التاريخ البشري على أن ثقافة التواصل تمثل أرقى الثقافات التي أنتجها الإنسان عبر تاريخه، وما من حضارة تنشأ إلا أخذت بهذه الثقافة وتواصلت مع الحضارات السابقة، لذلك تكون ثقافة التواصل واحدة من الدعائم الأساسية للنجاح والابتكار والرقي، لأنها تعكس رؤى وتصورات خصبة في جميع الميادين، ولهذا تدفع بالحضارات قدما إلى الأمام.

وسنتعرف على بعض المحطات من الشواهد التاريخية الدالة على أن ثقافة التواصل تمثل همزة وصل حقيقية بين الشعوب والأمم، وهي تتجاوز جميع ألوان الصدام مع الآخر، بل هي طريق إلى فهم الآخر والاستفادة منه، ومن هنا فهي تساعد على اتساع الأفق الذاتي، حيث تتمكن الذات من تخطي عقبات كثيرة أمامها.

وفي مقابل ذلك، هناك تمثيلات أيضا من التاريخ وهي تدل على الانكماش والاضمحلال الحضاري بسبب غلبة ثقافة التعصب والتحجر على ثقافة التواصل، لأن العصور الذهبية في كل حضارة شهدت التواصل الفكري والاجتماعي بين جميع الأعراق والأديان والمذاهب، حيث كل يحترم الآخر فيما يذهب أو يرى أو يعتقد، لذلك يعمل كل طرف على المساهمة في البناء الاجتماعي والحضاري عن وعي وبصيرة.

1- الحاجة إلى التواصل: إن ثقافة التواصل أمر ضروري للإنسان، ولا يمكن الاستغناء عنها، لأنها تعتبر من المكونات الجوهرية للإنسانية، كما أن هذه الجوهرية قاسم مشترك بين الشعوب

والأمم، وأما الإنسانية فهي قيم تكتسب من أعماق المفاهيم التاريخية، على حدّ تعبير كارل ياسبيرس، على أساس أن التواصل بين الناس أفرادًا وجماعات عبر التاريخ أمر قائم ومتواصل، لكن النتيجة المرجوة ربما لم تتحقق، إلا أن سمو هذا التواصل يجعله مطلبًا خالصًا من أجل سيادة المحبة بين الناس.

فعلم التاريخ يفيدنا بأحوال الإنسان كيف كان ثم أصبح، وإن كان فيه الغيث والسّمين والخرافة والتعقل والصدق والكذب، إلا أنه يعلمنا من نحن، وما هي مواطن النجاح والإخفاق، وطرق التوازن في الثقافة والحضارة، هذا إذا أحسنا قراءته، ونظرنا إليه بعين العقل لا الحاسة.

لذلك يكون كل تواصل بين الشعوب والأمم استجابة للروح الإنسانية، ومدى التعلق بها، حيث تظهر ملامحه في أزمنة قيام النهضات أو إقلاع الحضارات، أي في لحظات اللقاح، أو الصدمة التواصلية، التّي بدونها لا يستطيع الجديد أن ينطلق بلا قديم، ومَثَل سابق يستأنس به، ويسترشد به الإنسان الجديد في ظلمة المغامرة، ونشوة الانتصار الحربي.

ليس كل انتصار حربي انتصارا حضاريا، إنما الحرب وسيلة من الوسائل الكثيرة التي يلجأ إليها الإنسان بحسب غلبة قوى ونوازع النفس، كما تنشأ أيضا من البنية الاجتماعية، التّي قد تدفع إلى ممارسة الحرب.

ومما لا اختلاف فيه بين فلاسفة وعلماء جميع الأمم قديمها وحديثها أن الإنسان كفرد لا يقدر على تلبية مطالبه بنفسه، الأمر الذي دفعه إلى تعاون مع أبناء جنسه، من أجل مطلبين أساسيين، وهما: المعاش والأمن. لأن بقاءه يتعلق بهما حسب ابن خلدون، فكان عليه أن يتعاون مع غيره لتحصيلهما، لذلك جعل ابن خلدون الاجتماع الإنساني ضروريا.

لكن الروابط بين الفرد والآخر لم تكن سليمة، لذلك ما يزال الإنسان يبحث عن العلاقات الإنسانية المثلى التي تضمن للجميع مطالبه، دون الإخلال بمقوماته الطبيعية كإنسان حرّ، وقد جرّب وسائل كثيرة لتحقيق عقد التعاون السليم، في ظل الحياة الاجتماعية التي كثيرا ما كانت سببًا في ظلم الإنسان للإنسان. بمعنى الطرق المستعملة عبر التاريخ لم تأت أكلها، حيث ينظر الإنسان إليها بعين الشك، طالما تهدده لا في المطالب الجزئية، لكن في بعض الأحيان في وجوده، هذا الذي يدفعه إلى العداوة، والعداوة إلى الحرب والحرب إلى الهلاك، على الرغم من إدراكه لهذا الخطر، مع ذلك يغامر من أجل إعادة تأسيس عقد التعاون، لكي يكون سليما أو على الأقل يكون أفضل من السابق.

لذلك يكون الاجتماع الإنساني ضروريا، باتفاق جميع الحكماء، وعرّفوا الإنسان على أنه مدني بالطبع، ويضيف ابن خلدون" " أمرا ضروريا آخر. ألا وهو الحاكم، الذّي يستند إلى شرع منزل أو سياسة عقلية. غير أن الملاحظ على محطات التاريخ الكبرى أن الإنسان يسعى إلى التواصل لما يصل إلى خيبة الأمل من الأبنية الاجتماعية التي صارت عقبة في سبيل تحقيق مطالبه المادية والروحية.

فيضطر إلى ممارسة حق سحب الثقة أو فسخ عقد التعاون الذّي لم يستجب لطموحه، أو يحاول إعادة صياغته بشكل جديد، ويأمل أن يخلصه مما هو فيه، لكنه حتّى لو تجنب العنف وقبل بنظام قضائي يحقق له قدرًا من العدالة، إلا أن هذه النظرة التفاؤلية لا تضمن له الخلاص الذّي يرومه من المستقبل. لأن كل حضارة حاولت أن تقدم ما هو أفضل للإنسان، وزعمت ذلك من بداية عهدها، لكنها لم تف إلا بالبعض فقط، نظرًا لازدياد مطالب الإنسان وطموحاته، كلما ترقى في سلم الحضارة.

لعل حقيقة التواصل تتمثل في تقاطع حاجات ومصالح الناس، والتي يرغبون في تحقيقها، فينشأ عن هذا التفاعل ثقافة جديدة تتناسب مع أهداف التواصل مثل المعرفة بالموجودات واستجلاء صور الاستقرار والسلام.

هكذا يكون الإنسان في حاجة إلى التواصل، لما يشعر أن مصيره مهدد من الداخل أو الخارج، ومثل هذه اللحظات الحرجة فلا مناص له إلا التفاعل مع الآخر، والانخراط في عقد تعاوني جديد، يدفع بالجميع قدما نحو النمو والازدهار والسلام، ريثما تحل دورة أخرى لعقد آخر، لأن الطبيعة الاجتماعية في حدّ ذاتها تتطور دوما نحو الأفضل، وهي تشبه إلى حدّ كبير الكائنات الحية العضوية، التّي تسعى إلى بلوغ كمالها.

2- جدلية السلام والحرب: إن عموم الناس يعتبرون الحرب شرًا مطلقا، لا خير فيها، بينما بعض الفلاسفة يرى فيها وسيلة للتواصل، لا تقل أهمية عن الوسائل الأخرى، أمثال هيڤل وياسبيرس وغيرهما.

ومعظم فلاسفة الجدل يقرون بأن الحرب تمثل الوسيلة المثلى الدافعة إلى تحقيق التطور والازدهار، بل الاستمرار والنماء، وهم يجمعون تقريبًا على أن الإنسان قاصر أن يكون خيرًا بحتًا، ومن هنا تلوح ضرورة الصراع الذّي يجعل حياته تجيش بالحركة وتبرز بفضله أجلّ المواقف وأجمل الأفكار. ويرجعون السبب في ذلك إلى مبدأ الثنائية- الخير والشر- المكوّن لطبيعة الإنسان، لتبرير قيمة الحرب كوسيلة في إنتاج ما هو أفضل وإنجاز ما هو صعب والتقارب بين الناس، وهذه النظرة السائدة في الفكر الغربي ترجع جذورها إلى الفلسفة اليونانية.

فالحرب في نظر هيراقليطس هي حرب من أجل الحب، بمعنى أن الحب يرتدي حلّة حربية كفارس. وما الحلّة إلا وسيلة مؤقتة للوصول إلى

التناغم والسلام. ويقول في شذرة 51:" إنهم لا يفهمون كيف أن ما يختلف مع نفسه هو في اتفاق: فالتناغم قائم في التوتر بين الأضداد، مثل التناغم القائم بين القوس والقيثارة ".

هكذا يردّ هذا الفيلسوف الجدلي إيجاد كل الموجودات إلى مبدأ تناقض الأضداد، وبالتالي يصبح النزاع ضروريًا، لكي يحصل الاتصال الذّي هو وحدة مؤقتة، ينتهي بمجرد تحقيق غرضه، ألا هو إخراج الشيء إلى حالة الوجود، ثم ينطلق هذا الشيء الجديد في الصراع من جديد، فيكون الصراع محكومًا عليه بالاتصال، وبالعكس، أي الاتصال محكوم عليه بالتوتر. أما نظرة الناس إلى الحرب على أنها خراب وهلاك، فلأنهم عاجزون عن إدراك حقيقتها، من جهة كونها خيرًا، أو على الأقل هي شرّ لابد منه.

ولما ظهرت فكرة التاريخ العالمي أو الكلي في العصر الحديث، فقد عمقت مفهوم الحرب، عندما جعلته وسيلة ضرورية في دفع عجلة التاريخ البشري إلى الأمام، من خلال تفاعل العقل مع الواقع، وقيام الأبطال بتحريك مجرى التاريخ، ومكانة الانفعالية في صناعة الوقائع التاريخية، ويسمي هيڤل جملة هذه الأمور بمكر العقل في التاريخ أو دهاء العقل. على أن الحرب وسيلة ماكرة يستخدمها العقل لإنجاز الأمور العظيمة. وبما أن العقل فرداني، فقد أجاز له الاندفاع الفردي بكامل الصلاحيات، لأنه في نظره سينجز أعمالاً ذات طابع كلي ولصالح المجتمع البشري.

وما من شيء له قيمة إلا يتحقق بالحماسة والإقدام على التضحية. لذلك يعظّم الإنسان جميع أصناف التضحيات ويجلها، ويحث عليها، سواء من الناحية الشرعية أو العقلية، ولا يستخف بها إلا السفلة والجهلة.

مما لا شك فيه أن التحليلات الكثيرة التّي قدمها فلاسفة الغرب، لا يمكن رفضها على الإطلاق، مع ذلك نستطيع إبداء بعض التحفظات عليها.

أولاً: أنها تتبنى خيار الحرب في الجليل والضئيل.

ثانيًا: يعتبرون أن الحرب لا مفر منها، عند حدّ قولهم أن الإنسان محكوم عليه بالنزاع، بدل القول محكوم عليه بالتواصل.

ثالثًا: إن منطق الفهم لمفهوم الصراع أو الحرب على أنه يتضمن خيرًا كثيرًا أو كبيرًا، فهو قائم على الموازنة السيئة بين ما يفعله الله تعالى وما يفعله الإنسان. فالحرب إنسانية وبالتالي لا خير فيها.

رابعًا: الإقرار والإصرار على أن الحرب وسيلة من مبتكرات العقل، يجعلنا نتساءل لا عن طبيعة العقل فحسب بل عن حقيقته وقيمته، فالحكماء الراسخون في العلم يتفقون على أن العقل قوة لترشيد قوى الشهوات والغرائز، والعكس غير صحيح.

ويحضرنا قول مهم لعلي بن أبي طالب في بيان سبب العداوة:" الناس أعداء ما جهلوا". بمعنى الصراع والنزاع والحرب إنما تقع بسبب الجهل، لأن المتنازعين إذا تواصلا وتحاورا، فلا يقدمون عليها.

3- عوامل التواصل: رأينا قبل قليل كيف كانت الثقافة الأوربية الحديثة تصنع أفكار الموت والحياة، وتدفع بدولها إلى احتلال بلدان العالم المختلفة، تحت ذريعة نقل الحضارة أو التحضر ومساعدة المجتمعات المتخلفة على النهوض والتطور، وفي بعض الأحيان تستخدم غطاء القضاء الإلهي أو العقلي، كما كانت تمجد الحرب عندما جعلتها أداة للتواصل، وبالتالي إذا كنا نرغب في ثقافة

التواصل، فعلينا بأخذ ثقافة الحرب، لكن التواصل الحقيقي والمجدي لا يأتي من الحرب نفسها، بل بالعكس يأتي خارج الحرب، ولأن الحرب ليست فرصة من الفرص النادرة، حتّى تنتظر، ليأتي التواصل، إنما للتواصل عوامله المعقولة والمنقولة التّي لا يصح إلا بها. وهي عوامل كثيرة، منها الحوار قصد الإقناع، والتعايش والمخالطة والزواج. ومنها أيضًا التجارة وتبادل المنافع والرحلات، واقتباس العلوم والآداب واللغات والفنون، ومنها في العصر الحديث التطور الكبير في وسائل النقل والاتصال.

- التواصل بواسطة الحوار والتعارف والتعاون، ربما يكون الحوار محل خلاف، أيكون بين المتعلمين أم بين السياسيين أم بين عامة الناس؟ ففي الحقيقة أن الحوار الذّي يؤدي إلى التواصل بين طرفين مختلفين، خاصة على مستوى الحضارات والأمم، هو الذّي تشارك فيه جميع الفئات والطبقات الاجتماعية في حالة السلم، وليس في حالة الحرب، وفي الحالة الندية وليس في حالة التفاوت، لأن الحوار الذّي يكون أثناء الحرب، لا يوجد متسع من الوقت لمناقشة جلّ نقاط الاختلاف، كما أن ملامح القوة أو الضعف تظهر على المتحاورين، لذلك يفتقر هذا الحوار إلى أدبياته.

ونجد في الخطاب الإسلامي الأصيل ذلك الحوار الشريف الذّي يضمن كرامة وحقوق الطرفين المتحاورين. كما جاء في قوله تعالى:" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلا اللّه..." وقوله تعالى:" لكم دينكم وليَ دين "، وهذا النوع من الحوار يجري بتسامح واحترام وعدم فرض الرأي أو المعتقد على الآخر، اللهمّ إذا اقتنع طرف برأي معتقد الغير، فأراد التمسك به بمحض إرادته. فله ذلك.

لـذلك انتشـر الإسـلام بالإقنـاع لا بحـدّ السـيف وأسـاليب العنـف والإكراه المختلفة، بدليل أن الإسلام في نصوصه ينبذ العنف والإكراه في جميع شؤون الحياة، انطلاقًا من العقيدة إلى قضايا الحياة الاجتماعية، كالعقود المختلفة. ففي قوله تعالى:" لا إكراه في الدّين " هذا دليل على أن الإسلام لم يأت لإلغاء الأديان الأخرى.

وبالفعـل، فقـد كانـت هـذه الآيـات توجـه المسـلمين الفـاتحين وتحذرهم من اختراقها، وتمنعهم من ممارسة العنف غير الحربي، كما أن الطوائف الكثيرة بقيت متمسكة بعقائدها بعد الفتح، ولم يمنع ذلك من اندماجها اجتماعيًا مع المسلمين.

- الاختلاط والتعايش، فالملاحظ على تداول ثقافة التواصل أنها تنتشر بين الجماعات المختلفة من نواحي كثيرة كالعقيدة والعرق، إلا أن تلك الجماعات تعيش مع بعضها البعض في الودّ والتفاهم والتوافق، حيث تخالط جماعة ما الجماعة الأخرى في الشؤون الاجتماعية الإنسانية، دون أن تذوب الواحدة في الأخرى.

وقد تكون المخالطة بالجوار، حيث يؤدي أفراد الجماعات حقوق الجـوار، وترعاهـا مـع جميـع المجـاورين بغـض النظـر عـن الخصوصـيات المخالفة لدى بعضهم البعض، بمعنى تسود ثقافة التواصل وتتفوّق على ثقافة الانفصال، مثل تقبل كل المجتمعات الإنسانية القديمة والحديثة لليهود أن يعيشوا في أوساطهم، مع ذلك فإن اليهود لا يندمجون، حيث ينكمشون على أنفسهم، خوفًا على هويتهم التّي لا يهددها أحد لا من قريب أو بعيد.

كـذلك مخالطـة الشـعوب التّـي دخلـت الإسـلام بعـد الفتوحـات لبعضهم البعض، لكنهم بقوا متمسكين بثقافاتهم الخاصة إلى اليوم.

ومخالطة شعوب البلدان المستعمَرَة لشعوب البلدان المستعمِرَة، بعد حصولها على الاستقلال وتقليدهم في أشياء كثيرة ثقافيًا وحضاريًا.

ويعتبر الزواج أقوى الروابط بين المجتمعات البشرية، بالإضافة إلى كونه تعاقد سلمي، يساهم في إنشاء ثقافة التواصل وتمثيلها، فقد أدى في التاريخ الإسلامي إلى انتشار الإسلام وفي عصرنا هذا، فالزواج في الغالب الأعم يكون في صالح الإسلام كعقيدة، لكن حضاريًا في صالح الغرب.

لما كان الزواج المختلط يحدث بين المتخالطين بالسكن أو الدين، فإن تأثيره يتفاوت حسب الأسر. فالأسر الرئيسية التّي يكون مجال علاقاتها الاجتماعية أوسع من غيرها، فيكون تأثير ذلك الزواج كبيراً لأنه يترك أثرًا إنسانيًا حسنا بإحداث تقارب أكبر بين الجماعات.

إذن القاعدة الأساسية بين الجماعات تتمثل في ارتباطهم بعقود اجتماعية متينة مثل الزواج، حيث تضعف أسباب التنافر والتباغض، لأن الزواج يؤدي إلى قيام المودة والتآلف والتعاون والثقة.

- التنقلات والرحلات، لقد قامت الأفراد والجماعات بالانتقال من مجتمع إلى آخر، من أجل أغراض كثيرة، منها طلب المنافع المادية وغير المادية، فالمادية مثل تبادل البضائع والسلع عن طريق التجارة، والمغامرة لطلب متع الحضارة، كانتقال الأسبان من الشمال إلى مدن الأندلس في الجنوب، وانتقال بعض العرب الآن إلى الغرب. وأما غير المادية فمثل رحلات الاستكشاف وطلب العلم أو التعلم والتعليم، والفرار من الاضطهاد والطغيان، والتبشير والدعوة للأديان، إن جميع هؤلاء المتنقلين يساهموا في إنشاء وتداول ثقافة التواصل بين المجتمعات البشرية

وتوجد شواهد كثيرة عبر التاريخ، على أن ثقافة التواصل لم تنقطع بين البشر، مهما كانت الصدامات والحواجز النفسية والاجتماعية وحتّى الطبيعية، نذكر على سبيل المثال ذلك الأثر الكبير الذّي تركته الحضارة الأندلسية في نصارى الشمال واليهود معًا، وإذا كان اليهود يعيشون داخل المدن الأندلسية، فإن نصارى شمال الأندلس عرفوا ما كان للمسلمين من نظم سياسية وإدارية وتجارية وحتّى الأدب العربي عن طريق تنقلات الأشخاص للأغراض المذكورة أعلاه.

كما ينقل هؤلاء الأشخاص لغاتهم أو لونًا من ألوان الفنون الخاصة بهم إلى غيرهم، خاصة بين المجتمعات والحضارات المتجاورة أو المتقاربة، فاقتباس اللغات من بعضها البعض يؤدي إلى نشأة لغات خاصة بكل فئة اجتماعية، مثل لغة التجار وموظفي الدولة والعلماء والفنانين. وفي ميدان الثقافة العامة، يذكر ابن جبير أن زيّ النصرانيات في مدينة حضرة صقلية مثل زيّ نساء المسلمين، فهن فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات.

فاللغة الفنية أقدم ثقافة للتواصل بين البشر، حيث استخدم الإنسان في عهد البدائية جملة من التعابير الفنية، كالرسوم والألوان، للدلالة على اتصاله بجوهر الحقيقة، بمعنى وظّف الفنون في سائر الميادين، فقد كان يجمّل الآلات التّي يصنعها، متجاوزًا لوظيفتها، وعن طريق تبادل تلك الآلات، فإن الجانب الفني الذّي يلحقها ينتقل معها، ويعرفه الآخرون، وقد يعجبون به ويقلدونه ويصير مشتركًا بين الجميع.

- تطور وسائل النقل والاتصال، كلما اخترع الإنسان وسيلة جديدة في النقل والاتصال، فتتقوى ثقافة التواصل، وهناك شواهد لا تعدّ ولا تحصى في التاريخ، فمنذ القديم حاول الإنسان تطوير الطرق البرية والبحرية ووسائل الإنتاج لتيسير المعاش ومقاومة الطبيعة، لأن المواقع

الجغرافية التّي يقيم فيها ليست كلها مناسبة لضمان المعاش في جميع الظروف والأوقات.

لذلك، فإن طبيعة الموقع الجغرافي قد يكون معينا للاتصال بالآخرين، وقد لا يكون، وبالتالي تتعلق ثقافة التواصل أيضا بالبعد الجغرافي، كما يقول هيڤل عن البحر أنه ليس حاجزا طبيعيا، بل هو فضاء يساعد على الاتصال، بينما الصحراء يعتبرها سدا مانعا لكل اتصال. مثل إفريقيا التّي ظلت مغلقة أمام أنحاء العالم لانعدام أنواع التواصل.

هذا، أما في العصر الحديث فإن التطور الهائل لوسائل النقل والاتصال لم تعد للحواجز الجغرافية أهمية تذكر، فالاكتشافات الجغرافية والنشاط التجاري وظاهرة الاستعمار لم تترك بقعة من الأرض دون الوصول إليها، فالوسائل التكنولوجية الحالية قد قضت نهائيًا على صعوبات الجغرافيا وعوائقها. حتى أصبحت كل المجتمعات الآن كأنها تعيش في مدينة واحدة.

4- تمثيلات التواصل من التاريخ القديم: إن التمثيلات التاريخية ليست مجرد سرد لوقائع تاريخية، كما يظن عامة الناس، من أجل إثبات أو نفي أمر ما، ولا لأخذ العبرة مما وقع في الماضي، بل المراد أيضا التعرف على مجرى التاريخ البشري، وكيف تطور فيه الإنسان، وصار التواصل الثقافي عبر السياق التاريخي منتجا للحضارات. وناقلا لها من أمة إلى أخرى. لذلك تعَّد محطات التقاء وتلاقح الحضارات قليلة، وزمانها قصير، بالمقارنة لجملة الوقائع التاريخية عامة، باعتبار التاريخ ينقل أخبار الأقوام والأمم المتعلقة بالحياة السياسية والعسكرية، التّي طغت على المشهد التاريخي.

ولما كانت الحوارات الكثيرة في المدة الأخيرة تنصب على موضوع حوار الحضارات أو الأديان، وعلاقة الأنا العربي بالآخر، خاصة بالغربي، فلذلك سيكون التركيز على تمثيلات من العالمين العربي الإسلامي والغرب. هذا لا يعني أن الأمم السابقة خالية من أي تواصل ثقافي، فقد عرفت المجتمعات القديمة علاقات التواصل فيما بينها، إلى جانب التعايش والتسامح الديني داخل كل مجتمع، مثلما يذكر المؤرخ توينبي عن الامبراطورية الفارسية الأولى، أن سياستها تميزت بالتسامح الديني، حيث ساد التوافق والتعايش بين جميع العقائد المختلفة، لأن قهر الناس أو تهجيرهم يمكن إحداثه في أي وقت وبالوسائل المختلفة، إلا أن تهجير الآلهة أمر مستحيل، فضرب مثلا بعبادة يهوه في بيت إيل، شمال فلسطين، لما قضي على المعبد الديني هناك، حمل يهوه شرقا إلى بابل وجنوبا إلى جزيرة الفيلة على مهبط الشلال الأول على النيل.

هذا يدل على أن جميع الفتوحات يجب أن تأخذ ذلك الأمر بعين الاعتبار، كما فعلت الفتوحات الإسلامية إذ تخير السكان الأصليين للبلاد المفتوحة بين الدخول في الإسلام أو البقاء على عقائدهم، وقد أشرنا إلى هذا، أنه قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية وشريعتها.

أما من ناحية الممارسة التاريخية لدى المسلمين، فيشهد الغربيون أنفسهم، أن الفاتحين المسلمين يتمتعون بروح التسامح، لأن الدين الإسلامي قائم على التفكير الحرّ، بعكس الدين المسيحي القائم على مبدأ الخلاص، فكان مجال الاختلاف أوسع في الإسلام. على حد قول المستشرق كارل هينرش بكر.

ويرجع الأمر أيضا إلى طبيعة العرب كونهم من الشعوب المتسامحة، حسب الرحالة الأوربيين، فالتسامح عندهم موغل في القدم،

لحرص العربي على حريته حتّى إزاء العقائد، ويحكى أن ملكا من ملوك اليمن قبل الإسلام قال:" إن لي الحكم على الأجساد دون الأفكار وكل ما أبغيه من رعيتي أن تستقر تحت سلطاني، أما عقائدهم فإنني أترك الحكم عليها لبارئهم.

هكذا يشهد معظم المؤرخين على أن المسلمين أقاموا مجتمعهم على روح التسامح والتعايش والتفتح على الآخر، خاصة أهل العقائد الأخرى، لأن دار الإسلام كما يقول هنري كوربان: كانت الأفكار والرجال تنتقل بسهولة من طرف إلى طرف.

أما ول ديورانت فيقول:" لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة في الإسكندرية وبيروت وأنطاكية وحرّان ونصيبين وعنديسابور لم يمسوها بأذى، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب في الفلسفة والعلم ".

لما كانت لأهل العقائد غير الإسلامية مكانة هامة في الحياة الاجتماعية، فقد أصبحت ثقافتهم الخاصة رموزًا لدى المجتمع الواسع، ويقال أن طبيبًا عربيًا اسمه أسد بن جاني، ليس له زبائن، فسئل عن السبب، فقال: يكون للطبيب زبائن إذا كان مسيحيًا ذا اسم سرياني ولهجة سريانية ويلبس رداء من الحرير وهو محرّم على المسلم.

أما إذا انتقلنا إلى المراحل المتأخرة من التاريخ الإسلامي، فنجد الأبواب مفتوحة أمام اليهود والنصارى في المجتمعات الإسلامية، على الرغم من تفشي الفتن الداخلية، ثم اشتعال الحروب الصليبية شرقا وغربا، مع ذلك بقيت روح التسامح سائدة، وكانت العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والإفرنج عادية جدا، فالنشاط التجاري في البحر الأبيض المتوسط يسوده التسامح والتعاون في نقل الركاب والبضائع معًا.

ويصف الرحالة ابن جبير مشاهد عجيبة من هذا القبيل، حيث قد تشتعل حرب بين المسلمين والنصارى، ويلتقي الجمعان، و لا يعترض أحدٌ للرعايا والتجار، فهم يعيشون في أمن سواء في السلم أو الحرب.

قد يشك البعض مما ذكرناه، ويحتج ببعض الحوادث التّي وقع فيها بعض اليهود أو النصارى، وتتخذ ذريعة لاتهام المسلمين بالتعصب وغير ذلك، والحق أن اليهود والنصارى لم تفتح لهم الأبواب إلا لدى المجتمعات الإسلامية، حيث تغلغلوا في أجهزة الدولة وشؤون الحياة الاقتصادية، لكن بعضهم لم يحفظ العهد ولا الجميل، حيث ينقلبون عن أعقابهم، بإثارة الفتن والتسلط وإضاعة حقوق المسلمين، لذلك ترفع شكاوى إلى الخلفاء والأمراء، الأمر الذّي يوجب عزلهم من وظائفهم، كأمر الخليفة العباسي الناصر لدين الله بعزل ابن زطينا. لا لكونهم يهودا، مع العلم أن هذه الأوامر قليلة، حتى أصبحت من النوادر.

هذا في الشرق العربي، أما في الأندلس التّي عرفت حضارة راقية جدا، فلا يختلف الأمر عن الأحوال السائدة في الشرق، بل ربما أكثر تسامحًا وتعايشًا بين جميع أهل الأديان، حيث نفتتح هذا الموضوع بما أشار إليه مستشرق بالنثيا:" ولابد أن أولئك الأسبان - الذين دخلوا الإسلام- لم يندموا على فراقهم دينهم الأول وانتقالهم إلى العقيدة الجديدة، فقد تحسنت ظروف حياتهم من الناحيتين القانونية والاجتماعية إذ انتقلوا من الرق إلى الحرية ".

والحق أن الإسلام بالنسبة لشعوب كثيرة كان مكسبًا هامًا، خاصة في مجال حقوق الإنسان والحرية، منها الشعب الأسباني الذّي استجاب لدعوة الفاتحين في زمن قياسي، بالمقارنة لفتح شمال إفريقيا، الذّي استغرق أكثر من سبعين سنة، حيث قامت الأندلس على أرض

الأسبان وشيّدت عليها حضارة متميزة، ففي موضوعنا هذا، كانت الأندلس مجتمعًا دينيًا وعلميًا وصناعيًا وفلاحيًا فريدًا، أي هناك تواصل دائم بين الأديان الثلاثة في المجالات المختلفة، بدليل أن اليهود كانوا يتمتعون بالحرية الكاملة في الحياة السياسية والاقتصادية. وقد تولوا وظائف إدارية وسياسية، كمرتبة الوزير، والوزير الأول منهم حسداي بن شبروط، الذّي تولى أمر الخزانة في عهد عبد الرحمن الناصر، وإسماعيل بن نغريلة الذّي تولى الوزارة في عهد الملك حيوس. وكان لهذا التواصل الأثر الحسن على الغرب، بانتقال أسباب الحضارة إليه.

كما أن المدارس والمعاهد الأندلسية كانت تستقبل الباحثين والطلبة دون تمييز ديني أو عرقي، كمدرسة المترجمين في طليلة ومدرسة الدراسات العليا في كل من مرسية وإشبيليا حيث كانت تضم أعلام العلماء من المسلمين والنصارى واليهود، ونجد من هؤلاء الأعلام غير المسلمين المتبحرين بدراسة اللغة العربية وعلومها، أمثال رايموندو لوليو والقديس بدرو بشكوال ورايموندو مارتين وغيرهم.

5- تمثيلات التواصل من التاريخ الحديث والمعاصر: أما وضع التواصل في العصر الحديث، فتظهر ملامحه بعد انتهاء الصراعات الدامية بين المجتمعات الغربية، ثم بينها وبين باقي المجتمعات الأخرى، لأن النظرة التّي عاد بها الأوربيون إلى أوطانهم بعد الحروب الصليبية، كانت جديدة بالنسبة لنظرتهم المعهودة إلى الأشياء المختلفة. وأول ردّ فعل قام به الأشخاص الذّين توسعت آفاقهم، أن حطموا أركان الإقطاع، على الرغم من العواصف التّي أثارها الأسياد والنبلاء، ثم ألغيت امتيازات التجار، وظهرت الاتفاقيات الثنائية والمعاهدات الدولية. إضافة إلى نمو روح الحرية والاستقلال الفردي والجماعي لذلك توطدت علاقات التواصل بين الشعوب والأمم الأوربية.

لكن المبادئ الإنسانية المعلنة، فلها مثلها من المبادئ المخالفة تمامًا، من جهة يدعون إلى الحرية والسلام والعدالة، ومن جهة أخرى يرفعون راية إخضاع الفرد للجماعة أو بالعكس حسب النظريات، والعنف والتفاوت، كما أنهم عوضوا سلطة الكنيسة بسلطة دنيوية محضة لا تقل طغيانا عن السابقة.

هكذا، تكون العقلانية الغربية قد أنتجت أفكار الصراع والموت إلى جانب أفكار التواصل والحياة، كفكرة التاريخ العالمي التّي يوظفها الساسة كذريعة للغزو واستعمار البلدان، حتّى لو حاول فلاسفة الغرب تجميلها بمساحيق الاتحاد والسمو بالتاريخ البشري والانتخاب الطبيعي أو الإلهي. وفي الوقت نفسه هناك مقولات مناقضة تمامًا، ويعملون بها في صناعة التاريخ، كقولهم: لا يمكن قمع شهوة العنف إلا بالعنف. ولن تتغلب على التهديد إلا بالتهديد.

ومثل هذه المقولات، لابد أنها تؤدي إلى حروب مدمرة وطويلة الأمد، بدليل أن الحروب العالمية اندلعت كلّها في أوربا، حيث أن كل فريق يزعم أنه يقاتل دفاعًا عن نفسه وشرفه، وطلبًا لحقه، بل إرضاء للّه الذّي انتخبه لهذه الحرب، أما الآخر فهو عدوّ وشيطان يجب القضاء عليه وتخليص الناس من شرّه.

وقد يعترض معترض على هذا، فيقول أن الحرب زمانها قصير وتعقبها معاهدات سلام، ويصبح العدو صديقًا وبالعكس، لكن بطلان الاعتراض يستشف من المعاهدات المبرمة، فقد أحصى أحد المؤرخين عددها ما بين 1500- 1860 فوجد حوالي ثمانية آلاف معاهدة صلح. وهي تدعو كلها إلى السلام وحسن الجوار، وإذا نظرنا إليها على أرض الواقع، فلم تدم واحدة منها أكثر من عامين، بل صارت مثل مفهوم العقل عند هيفل، أي تدخل في باب دهائه.

ومهما تطورت الدول الغربية وقويت إلا أنها لا تستطيع العيش بمفردها والاعتماد على نفسها، وما يواجه مجتمعاتها هو التقدم العلمي والعلاقات الاقتصادية وتطور وسائل النقل والاتصال، فخوفها من المنافسة جعلها تمارس الضغط والحروب والتهديد بأشكال شتى، لكل من تشك في إمكانياته أن ينافسها، فغيرت من سياستها تجاه المعسكر الشيوعي. حتى أفسخته، وأما سياستها تجاه الإسلام والمسلمين فهي قائمة على نصب العداء، من أجل تكوين الشعور بالخطر لدى المجتمعات العالمية.

خاصة بعد أن تحررت دول العالم الثالث من قبضة الاستعمار واضمحلال ظاهرة الاستعمار، بعد موجة عاتية من الثورات التّي اندلعت ضدها في بقاء العالم، الأمر الذّي جعل خلفاء وأحفاد الاستعمار يستعملون مناورات مختلفة، للتحكم في رقاب الشعوب تحت ذريعة حقوق الإنسان والأقليات والتعصب الديني وامتلاك التكنولوجيا، وباستعمال الظاهرة العسكرة المعهودة تاريخيا، والحصار الاقتصادي وإشعال الفتن داخل المجتمعات المعارضة لها، واستغلال السمعة الدولية وهيئاتها، لأغراض خاصة.

والدليل على ذلك، أنهم يطبقون نصيحة أرسطو للأسكندر المقدوني كيف يتعامل مع سكان فارس بعد أن قهر ملكهم، وهو خائف أن يتفقوا عليه، فراودته أفكار العنف والقتل، فنصحه أستاذه أرسطو بألا يقتل أبناء الملوك، وإلا انتقل الملك إلا السفل والأنذال، وهؤلاء إذا حكموا قذروا وبغوا وطغوا، والخوف من معرتهم أكثر، فعليك بتقسيم البلاد وتولي كل واحد من أبناء الملوك بلدا فيحرص كل واحد منهم على ما بين يديه، ويخاف عليه من الآخرين، فتتولد العداوة بينهم وينشغلون عنك. وهي السياسة نفسها التي تطبق الآن من طرف الغرب إزاء غيرهم.

مع ذلك، فاللوم وعدم التواصل وتفهم الآخر، ليس من مسؤوليتهم وحدهم، لأننا نشاهد الأطراف الأخرى لم تحسن التواصل بالطريقة الإيجابية، التّي تخلق اطمئنانا وثقة بالطرف الآخر. فالطريق الذّي نسلكه مع الغرب إما طريق السمع والطاعة أو طريق العداوة والبغضاء.

فالغرب والشرق يحكمهما متعصبون، وكل واحد منهما ينظر إلى الآخر على أنه شرير- حاليا شيطان – وبالتالي أصبحا يتربصان ببعضهما البعض، وما العصر السعيد إلا الذي يتم فيه القضاء على طرف من طرف آخر، لذلك ينعدم التواصل بين الطرفين، فشعار الغرب بقيادة الولايات المتحدة في وقت غير بعيد، لا سبيل إلى الغلبة على الشر والتعصب والنظام الشمولي الشيوعي إلا بالتعصب. وتستخدم الأسلوب نفسه الآن مع العالم الإسلامي في مكافحة الإرهاب.

وفي المقابل، نجد ما يشبه ذلك، أي من المخجل جدا أن نحب الاستعمار وما هو عليه من التحضر، لأنه لا يحب لنا الخير، فلا يريد أن نكون أحرارا، ونملك أرضنا ونتصرف بدافع من هويتنا وآمالنا. وأما من يحبه، فليس لكونه يرعاه ويشفق عليه، بل لأنه أمام معبود يخاف من فقدانه، فإن مثل هذا الحب لا يؤسس لتواصل ثقافي أصيل، باعتبار التواصل في حدّ ذاته يجب أن يكون بين طرفين متساويين أو على الأقل في تقارب كبير، إنه من العسير أن يتفتح المجتمع العربي على الأفكار التّي يدعو إليها الغرب. فصعوبة التواصل قائمة، كما أن التواصل موجود في إطار حدود معينة، لم يرق بعد إلى تكامل ثقافي مشترك. لأن العالم الذّي يُطمح إلى العيش تحت ظلاله كل واحد من الطرفين هو عالم يسوده التواصل واحترام الآخر في هويته ومصيره، والتسامح والتعاون من أجل العيش في الرخاء والهناء والاستقرار والسلام.

وفي الختام، يمكن القول بعد هذه القراءة لمجرى التاريخ البشري، أن الصدام بين المجتمعات بسبب ديني أو حضاري يؤدي دائما إلى خرابها وتأخرها عن الركب الحضاري، وأن فترات ذلك الصراع تتميز بالاضمحلال والانكماش في الميادين المختلفة، وبالعكس تمامًا، يشهد التاريخ على أن التواصل الفكري والاجتماعي بين الأديان والحضارات يؤدي إلى النمو والتطور الحضاري.